في عدد جديد من مجلة «الف»:

نقاد اكاديميون وباحثون يحللون شهوة الترحال وهوية الخطاب

القاهرة ـ «القدس العربي»
ـ من شعيب حليفي

صدر العدد السنوي 26/ 2006 من المجلة الأكاديمية (ألف) والتي تصدر عن الجامعة الأمريكية بالقاهرة وتنشر مقالات مكتوبة باللغة العربية والانكليزية والفرنسية وتتبع نظام التحكيم التخصصي المتعارف عليه في الدوريات الأكاديمية وتشرف عليها فريال جبوري غزول.
وقد تم تخصيص هذا العدد لموضوع الرحلة (شهوة الترحال: أدب الرحلة في مصر والشرق الأوسط) حيث حفل بمواضيع ثرية نظرية وتطبيقية أصيلة لنقاد أكاديميين وباحثين خبروا الموضوع من جوانب مختلفة.

يقع العدد في 528 صفحة موزعة على قسمين اثنين، القسم العربي وساهم فيه جون رودنبك، شعيب حليفي، عبد الرحيم مؤذن، سيزاقاسم، مديحة دوس، محمد بريري، عصام بهي، سعيد الوكيل، وليد الخشاب، وليد منير وفخري صالح.
أما القسم الثاني الانكليزي والفرنسي فقد افتتح بحوار مع جون رودنبك ثم مقالات لكل من مايكل هاج، سحر صبحي مارانعمان، تيرينس والز، شارة سيرايت، ماليز راڤن، فدوى جمال، ج. د. جونز، نبيل مطر، هاشم تودة.
جاء في افتتاحية العدد قيام المساهمين بتحليل نصوص رحلات من مختلف الأماكن، مع التركيز على أدب الرحلة في الوطن العربي، أو في نصوص رحالة عرب الى مناطق أخرى من العالم، فهناك في هذا العدد دراسات عن الرحالة والرحلات، الرحلة الصوفية والتجوال السياحي، رحلات مكتوبة في القرون الوسطى وفي القرن الثامن عشر، الرحلة في مطلع القرن العشرين عبر استكشاف بغداد بمقالات مصورة واستكشاف جنوب افريقيا بيوميات مسافرة.
خطاب العين والهوية:
شمل العدد دراسات متنوعة بلغت 21 مقالة بالعربية والانكليزية وواحدة بالفرنسية بالاضافة الى حوار مع الباحث والأستاذ جون رودنبك، ولتقريب القارئ من أهم محاور هذه المواضيع نعرض للأفكار التي قاربها الباحثون في هذا العدد.

ج.د.ف. جونز (كاتب وصحافي. بريطانيا)
من يوميات مسافرة: جنوب افريقيا في 1923.

تقدم هذه المقالة شخصيات مرموقة قامت برحلة في أدغال جنوب افريقيا في 1923 مستشهدة بمقتطفات من يوميات الرحلة لمرجريت كلارك جيليت، وتصف صاحبة اليوميات الطبيعة، والزهور والنباتات، ولقاءاتها مع الزعيم مالابوك والسكان الأصليين، بما في ذلك مراسيم تبادل الهدايا.

شعيب حليفي (جامعة الدار البيضاء. المغرب)
الرحلات العربية: النص وخطاب الهوية

تتناول هذه المقالة ثلاث قضايا تعالجها بشكل متدرج، بدءا من دينامية التجنس في النص الرحلي العربي وتشكله جنسا قائما بمكوناته وخطاباته، أفرز نصوصا تنتمي الى ذاتها وعصرها والى النسق الثقافي، فاعتبرت ملتقى أجناس وحقولا تعبيرية متعددة. ويستبعد الباحث لفظة «أدب الرحلة» مستخدما نص الرحلة حتى تبقى المقالة منفتحة على آفاق أخرى لا تفيد الرحلة في جنس الأدب. النقطة الثانية تهتم باستجلاء مسارين في الخطاب الرحلي: مسار الذات، وخطاب الآخر، النقطة الأخيرة في هذه الدراسة تحليلية حول خطاب الهوية في نص رسالة ابن فضلان الذي زار بلاد الصقالبة في القرن العاشر الميلادي.

وليد الخشاب (جامعة كونكورديا. كندا)
الرحيل شرقا: الجغرافية الروحية وكتابة الرحلة الصوفية

كان الرحالة الكتاب من المسلمين كثيرا ما ينطلقون من الشرق الأوسط والمغرب متجهين شرقا الى مكة، في الغالب بغية أداء الحج، على العكس منهم لم يكتب الصوفية تقارير عن أسفارهم، بالرغم من كون الكثيرين منهم رحالة غاية في النشاط. كان الصوفية ولا سيما ابن عربي، يكتبون عن الجغرافيا الروحية، لذلك، فعندما يكتب ابن عربي عن السفر والرحلة الى عالم يتحول فيه المكان الى زمان، فيقوده فعل السفر نحو الماضي الى لحظة بدء الخليقة، ونحو المستقبل الى اللحظة التي تسبق موته المقدور، هذه السمات الخاصة باستخدام موتيفة الرحلة في الأدب الصوفي أسهمت في انشاء ذات فاعلة رحيبة رحابة العالم.

سيزاقاسم دراز (جامعة القاهرة مصر) : دعوة الى رحلة نوبة مارجو فييون

تقدم الكاتبة عرضا لكتاب Nubia: Sketches, Notes and phocographsللفنانة السويسرية مارجو فييون، التي تكررت سفراتها الى النوبة على مدى أكثر من أربعين عاما، وتركت فيها أثرا قويا خلف تراثا غنيا من اللوحات، والصور الفوتوغرافية، والنصوص التفسيرية، وتحلل المقالة أعمال فييون المنشورة في هذا الكتاب، من صور فوتوغرافية واستكشاف، مقارنة بين الصور الفوتوغرافية واللوحات المقابلة.

مديحة دوس (جامعة القاهرة. مصر) رحلة الترجمان عبر الزمان والمكان

وفيها تتناول مديحة دلالتي شخصية الترجمان: الدلالة التي تشير الى الترجمان السياحي الذي كان يختفي اليوم، وتلك التي تشير الى الترجمان السياسي الذي كان يقوم بدور الوسيط بين القوى الغربية (مثل جنوا والبندقية) والباب العالي. أما الترجمان السياحي فنجده مذكورا في نصوص أدب الرحالة.

ماليزرائفن (كاتب يعيش في لندن وباريس)

معيدا النظر في أعمال الكاتبة الرحالة فريا ستارك (عرابته)، يقترح الكاتب أن فطرتها الانسانية والفنية كانت على النقيض من ايمانها الرسمي بالامبريالية البريطانية. فقد تمسكت ستارك بايمانها الراسخ بخير الطبيعة الانسانية للعامة الذين شاركتهم حيواتهم بحميمية أكثر من الرحالة الآخرين.

جون رودنبك (كاتب وباحث أمريكي) الاسكندرية في أعمال كافافي وداريل ونسيركاس ترجمة ليس النقاش

يأتي تصوير ادموند كيلي للاسكندرية كواحد من الطرق العديدة للنظر لتلك المدينة، ففي كتابه النقدي اسكندرية كافافي نراه يصف المدينة بالانحلال. وهناك تصور آخر أقل كرما وأقل حرفية بكثير، ألا وهو تصور لورانس داريل صاحب رباعية الاسكندرية الذي تمتزج مفاهيمه عن تاريخ المدينة وسياستها ولغوياتها واثنوغرافيتها وطبوغرافيتها بخلفيته ذات العداء العرقي والديني الواضح. أما كونستانتين كافافي، الذي كثيرا ما يستدعيه داريل في كتابه كمرجع موثوق به، فانه بالطبع لم يتبن هذا الموقف.

جون رودنبك: الطريق الذي أخذته (حوار)

في هذه المقابلة المسهبة، يجيب رودنبك عن أسئلة عدد من الباحثين حول مغزى السفر، وأدب الرحلة، وتقاطعات الثقافات، ويشرح رودنبك آراءه ومعتقداته بتجل ينم عن معرفته الموسوعية، بادئا بسردية شخصية، يستكشف المحاور جذور انبهاره بالسفر والثقافات الأخرى، شارحا كيف جاء ليعيش ويدرس بمصر، ثم تقاعد بعد ذلك في فرنسا. وتضيء أمثلة عديدة مستقاة من رحالة تاريخيين من قارات وأزمنة مختلفة، ومن خبرته كأجنبي مغترب، وفي اطلاعاته الأدبية، رؤى رودنبك حول العولمة، والاستشراق، وأنماط الارتحال.

سارة سيرايت (كاتب بريطانيا) أوين جونز: الرحلة ورؤية الشرق

كان للمعماري البريطاني أوين جونز (1809 ـ 1874) تأثير كبير على التصميم والزخرفة في منتصف القرن التاسع عشر. وقد استمد العديد من أفكاره، خاصة فيما يتعلق باللون والرسومات، من رحلة زار فيها مصر ما بين عامي 1832 و1833، وأخرى زار فيها جنوب اسبانيا ما بين عامي 1833 و1834، ثم مرة أخرى في عام 1837، وكان جونز يعمل في فترة تميزت بالاهتمام بالعلوم وجماليات اللون.

فخري صالح: (ناقد الأردن) رحلات نايبول الى العالم الاسلامي: ملامح رؤية منحازة

تتناول هذه المقالة نظرة ف.س. نايبول الى الاسلام في كتب رحلاته الى العالم الاسلامي، مركزة على كتابي المؤلف الترينيدادي، هندي الأصل، بريطاني الجنسية: بين المؤمنين: رحلة اسلامية (1982) وأبعد من الايمان: رحلات اسلامية الى الشعوب المرتدة (1998). وتكشف المقالة نظرة نايبول المنحازة ضد الاسلام والعالم الاسلامي، وجمعه بين الاسلام التاريخي والاسلام السياسي الحديث ـ والنوع الأخير يحدده صدام الثقافات في أواخر القرن العشرين.

سحر صبحي عبد الحكيم (جامعة القاهرة) وليم جولدنج وأمصاره

كتب وليم جولدنج ثلاثة نصوص عن أسفاره الى مصر امتزج فيها الخيال بالواقع. وينطلق توصيفه لهوية من قناعته بتعدد وصيرورة الهوية،فبدلا من أن يقدم مصر ككتلة مصمتة تستمد معناها من هوية جوهرية، تنعكس قناعة غولدنج بالمفهوم المتعدد للهوية على تفاوضه على معنى مصر، خاصة أن مصر في خطابه تستخدم ككناية عن التاريخ والبشرية.

فدوى كمال عبد الرحمن (جامعة عين شمس) ف.س. نايبول: الرحالة الأبيض تحت قناع البشرة الداكنة

بين الحفاوة الشديدة من النقاد الغربيين والهجوم الأشد من نقاد العالم الثالث يبرز دور نايبول كواحد من أهم كتاب أدب الرحلات في القرن العشرين. وتوضح هذه المقالة تبني نايبول للنموذج الغربي في تصويره لشعوب العالم الثالث التي تناولها في كتاباته (خاصة افريقيا)، حيث يميل نايبول الى اعادة استخدام نفس القوالب الجامدة التي ورثها عن أشد الكتاب عنصرية في محاولة لالقاء اللائمة على شعوب هذه الدول.

هاشم فودة (جامعة باريس) صورة الشاعر حاجا غير تائب

تتناول المقالة عدة رحلات تبدو لأول وهلة أنها مختلفة، رحلة الحاج، وزيارة المحب، ورحلة البطل عبر الصحراء، وتفترض المقالة أن أوجه تشابه هذه الرحلات تتجلى في خطابها الشعري. ليس فقط لأن هذه الرحلات تعد تيمات متكررة في الشعر العربي الوسيط، ولكن لأن الترحال يضع الرحالة في مواجهة مع قوى عليا تهدد اكتمال الرحلة.

نبيل مطر (معهد فلوريدا للتكنولوجيا) أوروبا بعيون القرن الثامن عشر المغربية

تقارن هذه المقالة سرديتين لرحلتين قام بهما محمد بن عثمان المكناسي، السفير المغربي في القرن الثامن عشر، وتوضح السرديتان أن النظرة العربية المسلمة للآخر الأوروبي لم تقم حصريا على منطلقات دينية، بل على علاقات سياسية وديبلوماسية. وينبع وصف المكناسي السلبي لاسبانيا –على عكس وصفه الايجابي لايطاليا وصقلية وحتى مالطا – من تاريخ اسبانيا المعادي للمسلمين.

وليد منير (جاهة القاهرة) رحلة المنفى في الشعر العربي الحديث: عزلة المكان وتداعيات الذاكرة

كان للاغتراب الخارجي عند الشاعر القديم مقصد داخلي هو حياة الكفاية أو القرب من المحبوب. أما الاعتراف عند الشاعر الحديث فهو داخلي، نابع من القمع السلطوي (الآخر الداخلي) أو قمع المستعمر (الآخر الخارجي). وتتوازى رحلة المخيلة مع رحلة الواقع في تجربة المنفى، مثيرة الذاكرة التي تصبح أكثر نشاطا تحت وطأة ألم المنفى وسخريته.

عبد الرحيم مودن (جامعة ابن طفيل المغرب) الرحلة بوصفها جنسا أدبيا

تعيد هذه المقالة النظر في هوية الرحلة الأجناسية، من حيث كونها نصا سرديا يمتلك خصائصه الفكرية والجمالية المشتركة مع النص السردي. والثابت أن معظم الكتابات العربية جعلت من الرحلة نصا جامعا مانعا لكل المعارف والعلوم والأشعار والفتاوى والطرائف والحكم، دون أن ننظر الى انتمائها السردي ككاية سفر، بدأت تحظى بالاهتمام والبحث في الدرس النقدي المعاصر. السفر، في نصوص عديدة، مجرد وسيلة دون أن يكون غاية، بنية ثانوية بجانب بنى أخرى. أما بالنسبة للرحلة فانه يشكل البنية المركزية في النص مفرزا الخصائص الفكرية والجمالية للرحلة. وتستند المقالة الى نصوص رحلية عربية، موظفة بعض المفاهيم النقدية العربية، مع الاستفادة من اجتهادات بعض النقاد العرب.

مارانعمان (باحثة) أمريكا مفككة تحقيقات صنع الله ابراهيم في ثنايا الامبريالية.

تحلل هذه المقالة كيفية بناء صورة أمريكا – كمكان حقيقي ومتخيل– في رواية أمريكاتللي للكاتب المصري صنع الله ابراهيم. ففي حين تنتقد الرواية جهرا دور أمريكا النيوامبريالي في الشرق الأوسط وتاريخها من التدخلات بهدف المصلحة الخاصة، تقدم الرواية أيضا صورة أخرى لأمريكا كأمة تعج بالتفسخ الاجتماعي وتفتقر الى احساس متماسك بالهوية. وفي هذه المقابلة الثقافية المعكوسة، تتخطى كاتبة المقالة ما تراه تطبيقا خاطئا لارث ومنهجية ادوارد سعيد في كتاب الاستشراق، عن طريق مقاومة قراءة الرواية كمجرد نقد لأمريكا كرمز ضحل للسلطة والهيمنة.

مايكل هاج (كاتب. لندن) وحدها المدينة حقيقية. رحلة لورانس داريل الى الاسكندرية

تناول لورانس داريل طبيعة الواقع في كل من كتب الرحلات والروايات التي كتبها، كما يتجلى في كتاب زنزانة بروسبيرو، الذي تناول جزيرة كورفو، بالرغم من كونه كتب في الاسكندرية أثناء الحرب العالمية الثانية. وتوضح مذكرات داريل (1938) اعتقاده بأننا نعيش في رحم حضاري وثقافي وروحي، قانعين بفرضياتنا، حاسبين خبراتنا هي الواقع. لكن الرحم يصبح قبرا لمن لا يهرب منه. وفي رباعية الاسكندرية –التي شرع داريل في كتابتها عقب انتهائه من زنزانة بروسبيرو– يتضح أنه فقط عن طريق الهروب من زيف ما يدعى بالواقع، من المدينة الزائفة بمن يقطنها من ذوات زائفة، يستطيع المرء التحرك بوجهة الواقع المطلق، ومن ثم الحقيقة.

تيرينس والز (كاتب يقيم بأمريكا) الهجرة عبر الصحراء الكبرى والنظرة الكولونيالية: النيجيريون في مصر

زار جوردون جيمس ليثام–الضابط الكولونيالي في الخدمة النيجيرية– مصر في عام 1925 كمفتش على مجتمع النيجيريين – المعروفين بالتكارير (جمع تكروري) ـ .الصغير للبحث في مدى تأثيره على المناخ السياسي والديني بنيجيريا، خاصة في الولايات المسلمة في الشمال. وقد ركز ليثام على الطلاب النيجيريين الذين كانوا يدرسون بالجامع الأزهر وهؤلاء الذين تمركزوا حول زاوية بحي المغربلين بالقاهرة. ويرسم ليثام صورة لمجتمع مليء بالتعالي الكولونيالي وقد توافد التكارير على مصر منذ حوالي ألف عام للدراسة والتجارة وأحيانا كرقيق، مواجهين فيها مختلف الأقدار.

سعيد الوكيل (جامعة عين شمس) الرحلة بين النص القرآني والنص الصوفي

تنطلق هذه المقالة من فرضية ترى أن الرحلة ذات المغزى المعرفي الى العالم الآخر في الأدب العربي نهضت على مجموعة من التقاليد تأسست في النص العربي المركزي (القرآن الكريم) واستمرت في النص الصوفي. ويلاحظ أن الرحلة في القرآن ترتبط بالهدف المعرفي من الرحلة وتستند الى مجموعة من الأفعال المحورية هي أفعال الرؤية والتضحية والمعرفة، كما تتميز بالعجائبية. ويتبين أن الرحلة القرآنية ذات أبعاد مكانية وزمانية، كما أن لها أهدافا معرفية روحية. كما يتضح أن العناصر الأساسية في النص المصدر (المركزي) ظلت متواترة دائمة الحضور في النص الجديد، متيحة الفرصة لدخول عناصر أخرى لم ترد من قبل.

تداعيات

في ظل أعياد الثورة اليمنية

د. عبد العزيز القالح

■ يأتي الاحتفال بأعياد الثورة اليمنية (ايلول/سبتمبر ـ تشرين الاول/اكتوبر) هذا العام مختلفا فقد سبقته الانتخابات الرئاسية والمحلية بكل ما رافقها من حوارات ساخنة ومنافسة غير مسبوقة ليس على مستوى بلادنا وحدها وانما على مستوى الوطن العربي بأقطاره كافة. وبالرغم مما يقال وسيقال فقد اكدت هذه الانتخابات ـ بما لا يدع مجالا للشك ـ ان الوطن يتحرك ولا يعرف السكون والجمود وان الثورة التي تجذرت في وجدان الشعب قد صارت ـ بأهدافها الاستراتيجية ـ جزءا من حياته فقد قاومت وانتصرت رغم ان اغلب اعدائها هم من ابنائها الذين لم يفرقوا بين الثابت والعابر، وبين الثورة والنظام الذي يمثلها، لذلك فكل من يغضب من مسؤول او لا تعجبه تصرفات سلطة معينة يصب جام غضبه على الثورة كأنها ـ وهي الجزء المضيء من تاريخنا الحديث ـ مسؤولة عن كل تصرف لا يعجب هذا او ذاك.
وتبقى الثورة دائما كالأم الرؤوم تغفر لأبنائها خطاياهم واخطاءهم وشطحاتهم وتدرك ان النزق طبيعة بشرية وانه وراء العقوق والعصيان الذي تفصح عنه الكلمات كما انه وحده الذي يجعل هؤلاء الابناء يفقدون اعصابهم عند كل منعطف عام او خاص فتبدو منهم بوادر السخط التي لا مبرر لها، وعندما تهدأ ثورة الغضب ويدرك بعض هؤلاء خطأهم فانهم لا يترددون عن ابداء ندمهم واسترداد مواقفهم الوطنية مقدرين الانجاز الكبير الذي صنعته الثورة في حياتهم وحياة الوطن والمواطنين رغم كل المعوقات التي زرعها الاعداء في طريقها منذ اليوم الاول والى تاريخ كتابة هذه السطور.
وبالمناسبة، فانه لا يعرف اهمية التغيير الذي احدثته الثورة في العقول وفي الواقع وضرورته القصوى الا الجيل الذي عانى وقاسى وتعذب، اما هؤلاء الشبان الذين يركبون السيارات والباصات التي تسير على الطريق المسفلت في المدينة والذين يسافرون في بلادهم شرقا وغربا وجنوبا وشمالا على الطائرات والسيارات ويصلون الى مدنهم او قراهم في اقل وقت ودون تعب فانهم لا يمكن ان يتصوروا مدى التغير وكيف كنا نقطع المسافات بين مدينة واخرى على الحمير اياما. ونحن لا نريد لهم ـ معاذ الله ـ ان يشهدوا يوما واحدا من ايام ما قبل الثورة او ان يعودوا الى ذلك الزمن الكريه لكي يدركوا الفارق الذي يستطيع الاعمى ان يراه واذا لم يستطع ان يراه فان في استطاعته ان يتحسسه فكيف بالمبصر الذي يرى ويشهد ويطالب بالمزيد والمزيد.
لقد طوت الثورة ارخبيلا من المشكلات وعانت في طريقها الطويل من اللصوص وقطاع الطرق، ومن الاعداء السافرين الذين لم يدعوا حيلة ولا وسيلة الا واستخدموها لايقاف المسيرة لكنها استطاعت بعون من الله وحده ان تحقق كل يوم انجازا صغيرا يضاف الى انجاز صغير ليتكون بذلك هذا الانجاز الكبير بكل المقاييس. ودليل ذلك هو الاشارة عن صورة اليمن الذي كان عبر تقييم محايد اورده الاستاذ محمد حسنين هيكل في كتابه «سنوات الغليان» نقلا عن تصريح مشهور لرئيس بعثة السلام في السنوات الاولى للثورة السيد رالف بانش الذي يقول: «لقد كنت اتصور انني رأيت اسوأ صور التخلف في الكونغو، ولكن ما رأيته هنا في اليمن اقنعني بأن هناك ما هو اسوأ من التخلف في الكونغو!» وحديث شاهد العيان هذا ما هو الا واحد من عشرات بل مئات الاحاديث لشهود عيان هالهم ما كان عليه واقع بلادنا ـ يومئذ ـ من تخلف وانحطاط، ولأن التركة، تركة التخلف كانت كبيرة وثقيلة فان آثارها ستبقى لسنوات وسنوات وهو ما يستدعي العمل الدؤوب من كل المخلصين والشرفاء ـ وهم والحمد لله كثر ـ والذين يؤمنون بأن عاقبة النضال الطويل النصر والتقدم.

تأملات شعرية

سوف انسى المرارات
حين يطالعني وجه فاتنتي
استعيد المسرات بالقلب
والروح،
اذكر بعض وجوه الرفاق
واسكن في زمن
امسك القلب فيه خيوطا من الضوء
اصغي الى لغة في صفاء المياه
وفي لون شمس الشباب.

نظرة جديدة على الشعر الفلسطيني في عهد الانتداب: دراسة مثيرة للجدل!

ناجي ظاهر*

■ يحاول الباحث الأدبي الدكتور سليمان جبران، في كتابه «نظرة جديدة على الشعر الفلسطيني في عهد الانتداب» أن يؤصل للشعر الفلسطيني، ويقدم اجتهادات، في قراءته المجددة هذه، تستحق أن تكون مدار نقاشات موسعة، من اجل تعميق الرؤية إلى هذا الشعر.
فيما يلي استعرض أهم ما ورد في الكتاب، واترك النقاش إلى مناسبة أخرى.
يقول الباحث في تقديمه لكتابه، إن النية كانت في أول الأمر، القيام بدراسة للشعر الفلسطيني في إسرائيل، منذ عام 1948 حتى عام 1967، غير أن رأيه الدائم في أن الشعر الفلسطيني، في هذه الفترة، لم ينشأ من فراغ وانه امتداد طبيعي، بشكل أو بآخر للشعر الفلسطيني في عهد الانتداب، دفعه للعودة إلى النظر في الشعر الفلسطيني «الانتدابي» محاولا تقصي مميزاته الأسلوبية، ليشكل بذلك تمهيدا ضروريا للدراسة التي يدور الحديث حولها، فقام بقراءة كل ما وصلت إليه يده من هذا الشعر ومما كتبه عنه آخرون، فوجد أن ما كتب عن هذا الشعر تحكمت فيه الأهواء أو الاعتبارات المجانبة للموضوعية، أضف إلى هذا أن معظم هذه الكتابات لم تتناول تلك الفترة التأسيسية في الشعر الفلسطيني بالتحليل النصي الموضوعي، وإنما انصرفت في غالبيتها إلى استعراض الظروف السياسية الشخصية لنشأة هذا الشعر وانعكاس ذلك في موضوعاته ومضامينه.
هكذا وجد الباحث ما أراده أن يكون تمهيدا لدراسته، يطول ويطول، متضمنا ـ كما يقول ـ تقييمات جديدة وفيرة تقوم على اجتهادات خاصة ومخلصة ونظرة موضوعية منصفة في شعر تلك الفترة.
يبدأ الباحث دراسته، بالنظر في نهضة الأدب الفلسطيني وظروفها الموضوعية، ويرى أنها تأخرت واختلفت عما كانت عليه في كل من مصر ولبنان، جراء عوامل سياسية هامة، أولها في رأيه، أن فلسطين لم تكن كيانا سياسيا متميزا، حتى الحرب العالمية الأولى، وإنما كانت بحدودها الانتدابية منذ الفتح الإسلامي تشكل مع الأردن جندين من أجناد بلاد الشام، أضف إلى هذا أن فلسطين ـ كما يقول المؤلف ـ لم تكن كيانا مستقلا، لا قبل الإسلام ولا قبل المسيح في العصور القديمة، ذلك أن موقعها المتميز كان وبالا عليها عبر مراحل التاريخ المختلفة، بحيث غدت في تاريخها المديد ممرا للغازين والمستعمرين، خاضعة لهذا الفتح أو ذاك دون أن تعرف استقلالا تاما أو استقرارا حقيقيا منذ فجر التاريخ.
يرى الباحث في دراسته، أن الشعر الفلسطيني، بمعناه الوطني الدقيق، لم يكتب قبل مطلع القرن العشرين وان ما كتبه شعراء فلسطين في القرن التاسع عشر، في معظمه، هو شعر إسلامي لم يجدد في مفاهيم الشعر أو مضامينه أو أساليبه، موضحا أن هذا الشعر لم «يعكس مجتمعا فلسطينيا وانتماء فلسطينيا».
ويخلص الباحث إلى أن بداية الشعر الفلسطيني الحقيقية كانت في مطلع القرن العشرين، وذلك استجابة لأحداث كبرى في المنطقة، أهمها المشروع الصهيوني الذي اخذ يتحقق للعيان، ثم الدستور العثماني سنة 1908، وأخيرا نشوب الحرب العالمية الأولى، وما رافقها من أحداث «الثورة العربية الكبرى» بقيادة الشريف حسين سنة 1916، ثم وعد بلفور سنة 1917 حتى بداية الانتداب البريطاني على فلسطين سنة 1922.
ويرى الباحث أن أهم الأدباء الذين مثلوا المرحلة الأولى في الأدب الفلسطيني هم: محمد إسعاف النشاشيبي (1885 ـ 1947)، خليل السكاكيني (1878 ـ 1922)، اسكندر الخوري البيتجالي (1890ـ 1973)، وخليل بيدس (1874 ـ 1949) ويوضح أن جميع هؤلاء «تثقفوا ثقافة عصرية، فعرفوا اللغات الأجنبية، الإنكليزية والروسية بوجه خاص، فكان ذلك عاملا هاما في تشكيل وعيهم السياسي والاجتماعي قبل الأدباء والشعراء الآخرين من مجايليهم».
ويستعرض الباحث في مبحثه الثاني تحت عنوان «الشعر الفلسطيني في عهد الانتداب» العوامل التي ادت إلى ظهور هذا الشعر وازدهاره، ويذكر منها انتهاء الحرب العالمية الأولى وما تمخضت عنه من ضرب لحلم «الدولة العربية» الذي نادى به رواد النهضة القومية العربية، في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وما أسفرت عنه هذه الحرب والسنوات القليلة بعدها، عن خضوع فلسطين لانتداب بريطاني استمر حتى سنة 1948، في حدود «فلسطين الانتدابية» وعليها، بداء النزاع الطويل بين الشعب الفلسطيني والحركة الصهيونية، ثم الدولة اليهودية.
في مباحث الدراسة الأربعة المتبقية بعد الأول والثاني، يتوقف الباحث عند أربعة شعراء يمثلون، في رأيه، الشعر الفلسطيني في عهد الانتداب، هؤلاء الشعراء هم:
ـ وديع البستاني (1888ـ 1954) وهو شاعر «لبناني المولد والعشيرة وفلسطيني الإقامة والتوطن»، وصل إلى يافا، مساعدا مدنيا للكولونيل باركر، مع صدور وعد بلفور، غير انه ما لبث أن «تصدى للتحدي الانتدابي الصهيوني في فلسطين، مكرسا شعره وحياته للدفاع عن القضية الفلسطينية طوال فترة الانتداب» ما جعله يستحق، في رأي الباحث، اعتباره رائدا للشعر الفلسطيني، ويصف الباحث شعره بأنه تقليدي واضح يسير فيه صاحبه على نهج الكلاسيكيين الجدد، ويقول إن أسلوبه في شعره اقرب إلى شعر حافظ إبراهيم ومعروف الرصافي، منه إلى شعر احمد شوقي ومحمد مهدي الجواهري مثلا.
ـ إبراهيم طوقان (1905 ـ 1941) ويتفق الباحث مع سواه من الباحثين، في طليعتهم إحسان عباس، فيما يذهبون إليه من أن طوقان هو شاعر فلسطين الأول، ويرى، بعد استعراض لعدد من قصائده في طليعتها «الشهيد» وبعد التطرق إلى مميزات اتصف بها شعره، منها السخرية والفكاهة، والاستقاء من المقول الشعبي، إن هذا الشاعر ظفر بمكان الصدارة في الشعر الفلسطيني في عهد الانتداب، بما أنتجه من شعر فني راق وليس بالموضوعات السياسية فحسب، ويرى أن شعر طوقان، اقرب إلى مدرسة وسطى بين الكلاسيكية الجديدة بزعامة شوقي والرومانسية المشرقية لدى جماعة ابولو في مصر خاصة.
× عبد الرحيم محمود (1913 ـ 1948) ويرى الباحث أن هذا الشاعر يمثل ظاهرة نبيلة نادرة في تاريخ الشعر الفلسطيني، والشعر العربي الحديث عامة، ذلك انه حمل «روحه على راحته» مقاتلا ضد الإنكليز والصهيونية في وطنه فلسطين وفي العراق أيضا، «كأنما هو تشي غيفارا العربي»، حتى استشهد في معركة الشجرة شرقي الناصرة سنة 1948، أما من الناحية الفنية فان الباحث يرى أن بعض النقاد تأثروا في تقييمهم لشعره وفنه بظروف حياته وباستشهاده في ساحة القتال، ويخلص الباحث إلى أن الشاعر امتلك «موهبة شعرية واضحة»، لكن لم تتح لها أسباب النضج، ولم يحقق ما حققه أستاذه إبراهيم طوقان، في وطنياته من مستوى رفيع، ولم يستطع في غزله تحقيق قيمة فنية تستحق الذكر.
ـ عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) (1909ـ 1980) ويستعرض الباحث في مبحث عنه عنوانه «إدمان الغنائية» أشعاره، ويقدم قصيدته المشهورة «انشر على لهب القصيد شكوى العبيد إلى العبيد» مثالا لهذا الشعر، ويرى أن هذه القصيدة اتصفت بأنها خطابية «مجلجلة» كما وصفها هو ذاته، موضحا أن أشعاره اتصفت، منذ بداياتها حتى نهاياتها، بأنها يسارية، ويقول الباحث إن قصائد الغزل شكلت نصف نتاج الشاعر، مشيرا الى أن غزله اتصف بأنه عذب غنائي «غير انه لم يخرج عن أساليب الغزل التقليدية، بل يمكن القول إن هذه الغنائية الطاغية كانت على حساب التجربة الحميمة والتجريد» ويرى أن «غزله يذكر بشعر بشارة الخوري (الأخطل الصغير) في اعتماده على الموسيقى العذبة السائغة والألفاظ الناعمة والصور المنتقاة، وخلوه من التجربة والمعاناة العميقتين، حتى أن بعض قصائده لاقت طريقها إلى التلحين والغناء أيضا». وينهي الباحث دراسته الجادة والمثيرة للجدل فعلا وليس كلاما فحسب، بقوله: «هؤلاء الأربعة، في رأينا، من وضعوا الأسس الفكرية والفنية للشعر الفلسطيني في فلسطين والشتات، وفي إسرائيل أيضا، وإذا كان لا بد من إيجاز مميزات الشعر الفلسطيني قبل 48، فان ما يميزه هو الانخراط في الحياة السياسية والنضال الشعبي، والمناحي اليسارية، فكرا وصياغة، والاستقاء من اللغة العامية والمأثور الشعبي».

* كاتب من فلسطين